المحاضرة الرابعة: ظهور الزعامات الوطنية ومقاومة الأمير عبد القادر (1830 -1845).

1- اصطدام الحملة الاستعمارية الفرنسية بمقاومة شعبية عنيفة وتطويقها في مدينة الجزائر:

اعتقد الاميرال "دي بورمون" أن سقوط الجزائر سيؤدي حتما إلى احتلال كل القطر الجزائري، فخرج في حملة عسكرية يوم 23 جويلية 1830، لتوسيع رقعة الاحتلال في الداخل، ولكنه فوجئ بهجوم عنيف من طرف القبائل الجزائرية التي أجبرته على الانسحاب مخلفا وراءه 15 قتيلا و43 جريحا، كما فشلت محاولة احتلال عنابة في الحملة التي قادها الجنيرال "دام ريمون" في 02 أوت 1830، وانتهت بالانسحاب والفرار، وتوجت الحملة الفرنسية على مدينة وهران والمرسى الكبير في 13 أوت 1830، بالفشل وانتهت بمقتل قائدها "أميدي بورمون" ابن الجنرال "دي بورمون".

وبعد الهزائم المتكررة للجيش الفرنسي في الجزائر عين الجنرال " كلوزال" كأول حاكم عام للجزائر في 20 أوت 1830، حيث باشر في إعادة تنظيم صفوف الجيش الفرنسي في الجزائر، كما استحدث فرقة من المرتزقة للاقتصاد في المال والدم الفرنسي، كما أصدر" كلوزال" أمرا بحضر حمل السلاح أو بيعه أو استيراده حتى ولو كان بنادق صيد، كما انتهج سياسة الترغيب والترهيب تجاه الجزائريين لفصلهم عن المقاومات الشعبية، ووضع أسس الاستيطان الأوربي، وباشر في وضع أسس السلطة الفرنسية لتحل محل السلطة العثمانية.

لم تتمكن السياسة الجديدة التي انتهجها الجنرال "كلوزال" من اخماد نار المقاومة الشعبية وتوالت هزائم الجيش الفرنسي حيث سقط 27 قتيلا وجرح 80 جندي من جيش الضابط "بوايبه" في 22 نوفمبر 1830 في كمين نصب لهم في مضيق "موزاية"، كما تم مواجهة القوات الاستعمارية الفرنسية بمقاومة عنيفة بقيادة "الحسين بن زعموم" والذي جند حوالي 8000 مجاهد، وسبب خسائر فادحة في العتاد والأرواح للفرنسيين، كما قاد "الحاج السعدي" بالتحالف مع "بن زعموم" مقاومة شرسة ضد الجيش الاستعماري الفرنسي في نواحي الجزائر العاصمة ومتيجة وبوفاريك وجبال البيبان وبجاية، وكانت أول معركة خاضها هي معركة "زاوية التوري" حيث قتل فيها 57 جنديا من مرتزقة اللفيف الأجنبي.

ويمكن القول أن الاستعمار الفرنسي بقي محاصرا في الجزائر العاصمة طيلة الفترة الممتدة ما بين (1830-1834)، واقتصرت غزواته على بعض المدن الساحلية.

2- جهاد الأمير عبد القادر

أ- مولد ونشأة الأمير عبد القادر: ولد الأمير عبد القادر سنة 1807 بقرية "القيطنة" غربي مدينة معسكر، ببايلك وهران، وتلقى عن والده وغيره من العلماء جانبا عظيما من العلم، وحفظ القرآن وعلم الحديث وأصول الشريعة، ولما بلغ سن العشرين أرسله والده إلى مدينة وهران حيث تعمق في دراسة الفقه والحديث وأصول الشريعة، كما عمق معارفه في مجال الرياضيات والجغرافيا والتاريخ. اشتهر الأمير عبد القادر بشدة البأس وقوة البدن والفروسية، فجمع بذلك بين السيف والقلم، وقد صقلت مواهبه بعد رحلته مع والده إلى الحج عام 1825، أين أتيحت له فرصة التعرف على أوضاع البلاد العربية والالتقاء بكبار العلماء بدمشق.

ب- مبايعة الأمير عبد القادر: إثر احتلال الجزائر عرض أهالي بلدة "القيطنة" البيعة على والد الأمير عبد القادر الشيخ محي الدين، ولكن هذا الأخير رفض مسؤولية الإمارة، واقترح ابنه عبد القادر لتوليها، هذا الأخير الذي كان يحارب الفرنسيين في مكان يدعى "حصن فيليب" وبعد عودته وحين عرض عليه مقترح أبيه أجاب بحماس "أنا لها أنا لها"، وعقدت البيعة الأولى له يوم 27 نوفمبر 1832 تحت شجرة الدردارة في "وادي غريس"، وبعد ذلك كانت البيعة الثانية يوم 04 فيفري 1833 في قصر الإمارة بمعسكر.

ج- تأسيس دولة الأمير عبد القادر: بعد مبايعة الأمير قام في مرحلة أولى بتكوين أسس دولته الجديدة على النمط التالي:

- تأسيس مجلس للشورى يتكون من 11 عضوا بقيادة القاضي أحمد بن الهاشمي.
- شرع في تنظيم دولته الجديدة وجعل عاصمتها مدينة معسكر.
- قسم دولته الجديدة إلى 8 مقاطعات إدارية، ويرأس كل مقاطعة خليفة للأمير وتتمثل في: تلمسان، معسكر، مليانة، التيطري، مجانة، بسكرة، برج حمزة، الصحراء.

- كما وضع أسس جيش وطني وسن قوانين مستمدة من الشريعة الإسلامية، وسك العملة باسمه، ووضع راية وطنية، وأسس مصانع السلاح والذخيرة.

د- الأمير عبد القادر ودوره في محاربة الاحتلال الفرنسي: تميزت المرحلة الأولى من جهاد الأمير عبد القادر (1832-1837) بالقوة والحزم، حيث حاصر القوات الفرنسية في مستغانم وأرزيو ووهران، وقطع عنها التموين، واعتمد في خطته العسكرية على حرب العصابات موقعا بالقوات الفرنسية هزائم فادحة في معارك كثيرة منها: (خنق النطاح الأولى والثانية ومعركة برج العين)، هذه الهزائم المتتالية للجيش الفرنسي أجبرت الجنرال "دي ميشال" على اقتراح معاهدة الصلح مع الأمير عبد القادر عام 1834، وسميت هذه المعاهدة باسم الجنرال الفرنسي"ديميشال"، ومن أهم بنوها:

- الاعتراف بدولة الأمير عبد القادر - إحترام الدين الإسلامي - تبادل الأسرى - حرية التجارة.

ولكن بنود هذه المعاهدة لم تدم طويلا حيث عمدت فرنسا إلى نقضها، فتجدد القتال وتجددت معه انتصارات الأمير عبد القادر على العدو الذي أسقط في صفوفه مئات القتلى والجرحى، في العديد من المعارك وكان من أبرزها "معركة التافنة" عام 1836، ونظرا لانهيار القوة العسكرية الفرنسية، وعجزها عن احتلال مدينة قسنطينة، اضطر الجنرال "بيجو" إلى اللجوء للهدنة مرة أخرى فعقد معه "اتفاقية التافنة" في 30 ماي 1837، وقد استغل الأمير عبد القادر هذه الهدنة لتنظيم دولته وجيشه.

وبعد القضاء على مقاومة أحمد باي واحتلال مدينة قسنطينة، تم خرق اتفاقية التافنة من طرف فرنسا، وهذا ما دفع بالأمير إلى الإعلان عن الحرب يوم 19 نوفمبر 1839، وأسقط أكثر من 108 جندي في صفوف العدو في منطقتي متيجة ومعسكر، ولكن مقاومته لم تستطع الصمود طويلا أمام توالي الدعم المتزايد للجيش الفرنسي بالجنود والعتاد، حيث بلغ تعداده عام 1841، حوالي 71000 جندي.

أمام هذا الوضع اضطر الأمير عبد القادر إلى التراجع نحو المغرب الأقصى عام 1843، إلا أن سلطان المغرب عبد الرحمن تخلى عنه بعد القصف الفرنسي لمدينتي طنجة والصويرة، وأرغم الأمير على الرجوع إلى الجزائر عام 1845، واستسلم إلى القائد الفرنسي "لاموسيير" مقابل توقيف فرنسا لحملات الإبادة، وسجن الأمير عبد القادر بسجن "أمبواز" وعند إطلاق سراحه، اختار الهجرة إلى سوريا رفقة أسرته ومكث هناك إلى أن وافته المنية عام 1883.

مصادر ومراجع المحاضرة:

- عمار بوحوش، تاريخ الجزائر السياسي من البداية لغاية 1962، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.

- جون وولف، الجزائر وأوربا (1500-1830)، تر: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

- محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1515-1543)، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.

- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1980.

- نصر الدين سعيدوني، الجزائر في التاريخ العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

- أبو القاسم سعد الله، أضواء تاريخية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.

- فرناند بروديل، البحر المتوسط المجال والتاريخ، تر: عمر سالم، منشورات وزارة الثقافة تونس، 1990.

-أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492- 1792)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1965.

- محمد العربي الزبيري، مدخل إلى تاريخ الجزائر الحديث، ج01، الجزائر، 1985.

- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مكتبة الحياة، بيروت، 1980.

- أمين محرز، الجزائر في عهد الأغوات (1659-1671)، دار البصائر للنش ر والتوزيع، الجزائر، 2011.

- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه فارس، دار العلم للملايين، بيروت، 1988.